اسم الدرس : تفسير سورة يوسف (10) | الآيات (84 : 110)

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، نستكمل بإذن الله عزَّ وجلَّ وقفات مع سورة يوسف.

كنا توقفنا عند قول الله سبحانه وتعالى {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ}

- دائمًا نَذْكر أنه لا بد من تحديد المشهد الذي تحدث فيه القصة، قلنا أن قصة يوسف من القصص القرآني، ومن خصائص القصص القرآني التنوع السريع بين المشاهد، فلابد أن تكون مُستحضِرًا أين يحدث المشهد ثم تُعايش هذا المشهد.

- آخر مشهدٍ توقفنا عنده لما رجع إخوة يوسف، كم واحدًا عاد منهم؟ عشرة أم تسعة أم أحد عشر؟ تسعة؛ لأنه من الذي بقي هناك؟ بنيامين وأخوهم {قَالَ كَبِيرُهُمْ} على خلافٍ في اسمه سواءً كان رابيل أو شمعون أيًّا كان.. وذكرنا أن الإمام الطبري رجَّح أنه الأكبر سنًّا، فرجع البقية إلى يعقوب عليه السلام وأخبروه {إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ} فصَبر يعقوب عليه السلام وقال {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ} **نفس الكلمة ونفس الإيمان، ثبات الجبال، صبر يعقوب فعلًا في هذه القصة من ثبات الجبال.**

قال {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا} وتحدَّثنا في مسألة هل هذا يُعتبر سوء ظنٍّ أم لا! وأنهم هم من وضعوا أنفسهم في هذا المكان، فمن وضع نفسَه في مكانٍ يُساء فيه الظنُّ فيه فلا يَلُومنّ إلا نفسَه، بل حتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو من هو -صلى الله عليه وسلم خير من مشى على الأرض- حينما خرج ليلًا مع زوجته صفية ونظر إليه بعض أصحابه قال (إنها صفية)، في حين أنه ليس موطن تهمة، ولكن حتى لا يُسيء الناس الظن فيه، وحتى يكون هذا موضع تعليم أن يُبَرئ الإنسان نفسه، فقال إنها صفية أي زوجتي؛ حتى لا يظن به أحدٌ أنه يسير مع المرأة ليلًا، قالوا يا رسول الله أَوَنُسيء فيك الظن؟ أي غير معقول أن نُسيء فيك الظن، لكن النبي صلى الله عليه وسلم يُعلمنا أن هذا منهج لابد أن يستعمله الإنسان (إنها صفية).

{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ} حسن الظن بالله مهما حدث، هذا مهم جدًّا أن يحسن الإنسان ظنَّه بالله مهما حدث، ومهما كانت الأمور، وأن يكون متفائلًا دائمًا، حتى لو لم تحدث انفراجةٌ في الدنيا فهو متفائلٌ بأن الله سبحانه وتعالى يدَّخر له الأجر يوم القيامة.

{إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ} هو لم يعد يناقشهم ولا يتكلم معهم، انصرف عنهم، { وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ} بعض العلماء قال هنا أنه ليس معنى ذِكْرِ الله أنه تَأَسَّف على يوسف أنه لم يَتَأَسّف على بنيامين، *ولكن هذه القصة سِيقَت لأجل يوسف عليه السلام فتَأَسَّف على يوسف، ولأن يوسف عليه السلام –هذه نقطة مهمة جدًّا– في أول القصة رأى رؤيا علم منها يعقوب أنه سيُبتَلى، وأنه سَيُنَبَّأ، وأنه سَيُصطَفَى، وكان يعقوب يعلم أن يوسف عليه السلام يحمل الدين، فكان يعقوب عليه السلام **مشغولٌ بهمّ الدين مَن سيحمله!** كما كان زكريا يطلب من الله سبحانه وتعالى من يَرِثه أي من يحمل عنه هذا الدين، فكان زكريا عليه السلام ينظر في قومه فلا يجد من يحمل وراءه هذا الدين، فكان يتمنى أن يُرزق بالولد لا للولد في ذاته، بل لأجل أن يَرِث هذا الولد النُّبُوَّة {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ}، لذلك قال {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}.

فكان يعقوب شديد الحب ليوسف لكَونِه أبيه ويوسف ابنه، وأيضًا لأنه نُبِّئ فكان يرى فيه مستقبل النبوة، والاصطفاء، وحَمْل الرسالة، وكان هذا تأويل يعقوب ليوسف عليه السلام.

{يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}، كظيم، يقال: القِربة المكْظومة أي المغلقة التي مهما حدث فيها من ضغط لا تُفْتح، فكأن يعقوب عليه السلام كتم هذا ولم يشكو إلى أحد، فكان يحمل بداخل صدره همومًا وأحزانًا لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ولم يكن يشكو اللهَ سبحانه وتعالى إلى خلقه ولكن {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} فلذلك معنى الكظيم: الذي امتُلِئَ بالمشاعر سواء الغيظ، أو الحزن، أو الألم.

هذا معنى الكظيم فهو من يمنع أن تخرج هذه المشاعر إلى غير الله، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (من كظم غيظه...)[1] فكأن الإنسان كالقربة المملوءة يكاد أن ينفجر، لكنه يُحاول أن يكتم هذه المشاعر ولا يُخرجها، وهذا له ثوابٌ عظيم عند الله سبحانه وتعالى، كما هو مذكورٌ في القرآن {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ}، وفي السُّنة.

فقال ربنا سبحانه وتعالى {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ} هنا خطبٌ ما؛ قد يتعجب الإنسان كيف يبكي يعقوب عليه السلام كل هذا البكاء وهو نبيٌّ؟؟

1

ليس هناك تعارض بين الاصطفاء والمقام العالي، وبين البكاء، والفكرة المشهورة "أن الرجال لا تبكي" هذه الكلمة خاطئة.

بكى النبي صلى الله عليه وسلم حينما مات إبراهيم ولده، وتعجب بعض الصحابة، فكان منهم من يتخيَّل أن هناك صورةً مثالية، لكن هذه الصورة غير حقيقية، بل هي صورة مُتَوَهَّمَة عن المثالية، فقالوا "أوتبكي يا رسول الله؟"، هم يعتقدون أنه طالما أنه نبي فإنه لا يبكي على فقد ابنه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (هذه رحمةٌ يضعها الله سبحانه وتعالى في قلوب من يشاء من عباده)[2] أي أن هذا البكاء رحمة، القضية كيف تجْمع بين الرحمة وبين الصبر؟ (إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون)!

لما تكلم العلماء حينما مات للفضيل ولدٌ، وحاول أن يبتسم، حاول أن يُخَبِّئ مشاعر البكاء فابتسم، فقالوا إن فِعْل النبي صلى الله عليه وسلم أكمل وأشبه بالإنسانية وبكمال الفطرة، وهو أن يبكي الإنسان على فقد ولده ولا يتكلف غير ذلك، لكنه لا يقول إلا ما يرضي ربه سبحانه وتعالى .

فكان يعقوب عليه السلام يكظم غيظه لا يُظهره، يكظم حزنه ولا يُظهره لغير الله سبحانه وتعالى، فلا يتكلم مع المخلوقين، ولا يشكو اللهَ إلى خلقه، وكان كثير البكاء حزنًا على يوسف، وحزنًا على نُبوَّةِ يوسف واصطفائه وكان يتمنى عودة يوسف وحمل النبوة.

- لذلك قال بعض العلماء منهم الإمام ابن عاشور في تفسيره: أن بكاء يعقوب هنا كان عبارة عن كثرة الشكوى إلى الله، فقد كان يبث شكواه إلى الله، فكانت كثرة البكاء نتيجةً لكثرة التضرع إلى الله، فقال أن عينا يعقوب قد ابيضت من الحزن كما تورمت قدم النبي صلى الله عليه وسلم من قيام الليل، فكلاهما يشبه الآخر، فكان هذا من كثرة شكوى يعقوب وتضرعه إلى الله سبحانه وتعالى.

أحيانًا إذا وقعت بالإنسان مصيبة يُكْثر من الشكوى إلى الخلق، وأكرر هذا المعنى كثيرًا؛ الإنسان بداخله مجموعة من المشاعر، وهذه المشاعر تكون محدودة، إذا فَرَّج الإنسان هَمَّه وبث مشاعره مع أحد من الخلق، فلن يكون هناك مكانًا للبث مع الله سبحانه وتعالى، لذلك الآية التي تليها لما عاتبوه {تَاللَّهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ} قال بعدها {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}.

البث: قال كثيرٌ من المفسرين أنه يعني الهم والغم، لكن أصل كلمة البث؛ ماذا تعني؟ الانتشار، فيقال البث المباشر إذا انتشر الأمر، أو الفراش المبثوث أي المنتشر، كذلك الهم والغم إذا استحكم في صدر الإنسان ولم يستطع أن يحافظ عليه فيُخرجه فيكون هذا هو البث، وهذا البث لا يكون إلا مع الله، فهذا

[2] عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سيف القين – وكان ظئراً لإبراهيم عليه السلام – فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه. ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى فقال صلى الله عليه وسلم: إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون))

حال الأولياء الأصفياء، فيعقوب عليه السلام كان يكظم الغيظ، ويكظم الحزن، ويكظم الألم مع الناس، فإذا اختلى بربه بث هذا، فيُظهر التصبر أثناء وجوده مع الناس، ويتكلف الصبر ويُظهر التصلب أمام الناس، فإذا خلا بربّه أظهر بثه وحزنه وجزعه بين يدي الله، وهذا أمرٌ طبيعي، فالإنسان إن لم يبكِ في سجوده بين يدي ربه فمتى يبكي؟!

هذه الطاقة من البكاء لابد أن تخرج وإلا انفجر الإنسان، وإلا لا يصبح الإنسان طبيعيًّا، لكن إذا أخرجها في محلها صار سويًّا، لذلك إذا مرَّ الإنسان بأزمة كبيرة، فبكى في سجوده طويلًا، وخلا بربه ليلًا وبكي وتضرع وأكثر من البكاء، فإنك تجده في الصباح إنسانًا سويًّا، لأنه أخرج طاقة الحزن التي بداخله، وفي المكان الصحيح بين يدي الله، وفي الوقت الصحيح في قيام الليل، فإذا خرج إلى الناس خرج قويًّا صلبًا لا يتأثر بكلامهم ولا بالأحداث التي تحدث أمامهم، **لماذا؟** لأنه أخرج هذه الطاقة في محلها.

فيعقوب عليه السلام وصفه الله بوصفين:

*أنه كظيمٌ يمنع خروج المشاعر، يكظم ذلك، ويمنع تلك القربة المغلقة.

*ووصفه أنه يخرج البث، يخرج ما في صدره.

وليس هناك تضاد، فكيف يُمكن الجمع بينهما؟ هو كظيمٌ أمام الناس ويُخرج كل ما بداخله إذا خلا بالله، (إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني عن الناس)[3] الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم –وإن كان في سنده ضعفٌ– حينما عاد من الطائف، أن تُخرج كل ما بداخلك بينك وبين الله لأن الله سبحانه وتعالى يَطَّلِع عليك ويعلمُ تفاصيل تفاصيل نفسك، ويعلمُ أحزانك وهو قَدَّر ذلك ليستخرج منك هذا الدعاء، فالدعاء هو العبادة.

- فحينما تخلو بربك؛ أخرجْ كل ما بداخلك، تضرع إلى الله سبحانه وتعالى، وبُثَّ شكواك إليه كما فعل زكريا، وكان يصف حاله وصفًا دقيقًا: {إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي}، هذه نجوى وحال بينه وبين الله، كما كان الحال أيضًا بين أيوب وبين الله في قوله: {أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ}. الكل يبثُّ نجواه وشكواه بين يدي الله سبحانه وتعالى، فالإنسان لابد أن يُخرِج هذه الطاقة، البكاء والحزن وبث الشكوى بين يدي الله سبحانه وتعالى؛ لذلك ذكرها بصيغة الحصر: {إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي}، هذا البث لا يكون إلا بين يدي الله.

---

[3] اللهُمَّ إليكَ أشكو ضعفَ قوَّتي وقلةَ حيلتي وهواني على الناسِ، أرحمُ الراحمينَ أنتَ ؛ ارحمْني، إلى منْ تكلُني ؟ إلى عدوٍ يتجَهَّمُني، أمْ إلى قريبٍ ملَّكتَهُ أمري ؟ إن لمْ تكنْ غضبانًا عليَّ فلا أُبالي، غيرَ أنَّ عافيتَكَ هي أوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهِكَ الذي أشرقتْ لهُ الظُّلُماتُ وصلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ أن تُنزلَ بي غضبَكَ أو تُحلَّ عليَّ سخطَكَ، لكَ العُتْبى حتى ترضَى ولا حولَ ولا قوةَ إلا بكِ. ((ضعيف))

- ذِكْر تفاصيل التفاصيل مع البكاء كان حال الأصفياء والأولياء، وهذا لا يكون إلا بين يدي الله سبحانه وتعالى، وهذا لا يمنعك من أن تستشير الناس، وتفضفض معهم، تخلو بهم، وتشرح ظروفك، وتطلب منهم النصيحة، لكن حالة الحزن التام، وبث المشاعر، والتضرع، والبكاء لا تكون إلا بين يدي الله؛ هكذا يصبح الإنسان سويًّا، معتدلًا، صلبًا أمام الأحداث، والأقدار التي يقابلها في حياته.

{وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ} قيل: أصابه العمى من كثرة البكاء، والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، فكانت كثرة تضرعه إلى الله بسبب شدة حزنه على فقد يوسف عليه السلام، {فَهُوَ كَظِيمٌ} كان يكظم هذه المشاعر أمام الناس.

{قَالُواْ تَٱللَّهِ} استعملوا هنا حرف التاء: للقسم، وهذا تكرر في السورة، وقيل -كما ذكرت لكم- أن التاء بمعنى الواو، ويأتي القسم النادر مع الأشياء النادرة.

{قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ} تفتؤ: هنا "حرف نفي محذوف" والتقدير: لا تفتؤ بمعنى لا تزال، ولا تفتر، فمعنى الآية: لا تفتر عن ذكر يوسف، لكن هنا -كما قلنا- حرف نفي محذوف.

وهذه سياقات معروفة مثل: بيت الشعر المشهور الذي يذكره كثيرٌ من المفسرين: "فقلت يمين الله أبرح قاعدًا.. ولو قَطَّعوا رأسي لديك وأوصالي"، هنا يتحدث الشاعر مع امرأةٍ يحبها، قالت له: سنُفضَح؛ لأنه كان ذاهبًا إليها ليلًا والناس حولهم، فقالت: سباك الله إنك فاضحي، فرد عليها: قلت يمين الله أبرح، أي: لا أبرح، فهذا أمرٌ معروفٌ في اللغة: أنه إذا فُهِم حرف النفي من السياق؛ فإنه يُحذَف.

وكلَّما وجد بعض المفسرين أصحاب البلاغة لفظًا غريبًا، أو سياقًا قرآنيًّا مستغربًا؛ فعلوا شيئين:

أولًا: يثبتون صحة ذلك نحويًّا عن طريق الرجوع إلى كلام العرب، وأن هذا من استعمالاتهم.

ثانيًا: يثبتون فائدة ذلك بلاغيًّا.

أحيانًا يَقْصُر بعض المفسرين في إثبات صحة هذا الاستعمال، وأن العرب استعملوه، فبما أن هذا ورد في القرآن؛ فنحن موقنون أن هذا الاستعمال صحيح، لكن الرد بأن العرب استعملوه أو لا يكون لمن ألقى شبهةً على القرآن.

- فما الفائدة البلاغية من حذف حرف النفي هنا؟ قالوا كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا: أن الطلب الذي طلبه أخوة يوسف طلبًا غريبًا ومستنكرًا جدًا؛ وهو أن ينسى يعقوبُ يوسف؛ فناسب معه هذا الاستعمال النادر، فكأن إسقاط حرف النفي يشبه إرادتهم في إسقاط يوسف من حسابات يعقوب، وهذا لن يحدث.

{قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا} من الذين يقولون له؟ أبناؤه هم الذين يقولون له هذا القول؛ لأنهم ما زالوا معه في هذا المشهد، وهو انصرف عنهم وتولَّى عنهم وأراد أن يُحدِّث ربه قائلًا:

{يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ}، فهو لا يكلمهم، فهم لم يتركوه حتى في خلوته مع ربه، وتدَخَّلوا أيضًا؛ لأنه لا يزال هناك بقية انشغال بيوسف في قلوبهم.

{قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا} قالوا عن الحرض: أصابه الضعف والبلى والهرم بسبب مشاعر معيَّنة، أن يحزن الإنسان أو يُحبَّ أو يمرض حتى يَبْلَى جسده وتضعُف قوته، فالشاهد أن النتيجة النهائية لمشاعر الحزن أو المرض هي أن يَبْلَى الجسد وتَضْعُفَ قوته.

لذلك بعض المفسرين اختلفوا في معنى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ} [الأنفال ٦٥-٦٦]، وهنا {حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا}، ودائمًا الذي يساعدنا على فهم اللفظة القرآنية؛ أن ننظر إلى استعمالات القرآن لها في المواطن الأخرى؛ قالوا: ما معنى "حَرِّض"؟

- بما أن الحرض بمعنى الهلاك، أو مقاربة الإنسان الهلاك، فقوله {حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا} معناه: حتى تقارب الهلاك بسبب حزنك على يوسف، فبعض العلماء قال: أحيانًا يُسمَّى الفعل "فعل السلب"، فما معنى فعل السلب؟ أشهر مثال هو الفعل قَسَطَ، وما معنى "قسط" في القرآن؟ جار أم عَدَل؟ عندما يقول ربنا {وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} فهنا بمعنى جار، واسم الفاعل من قسط هو "قاسط"، إذًا "قسط" بمعنى وقع في الجور، وعندما يأتي من يقول أنه أزال الجور؛ فإنه يضع ألفًا تُسمَّى "ألف السلب"، فيتغيّر معنى الكلمة ويُسلَب منها معنى القسط، فتكون "أقسط" بمعنى عَدَلَ، كما في قوله تعالى {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ} وليس "القاسطين"، لأن "مقسط" هنا اسم فاعل من الفعل أقسط.

مثالٌ آخر في صحيح البخاري أن (النبي صلى الله عليه وسلم كان يَتَحَنَّث الليالي ذوات العدد)[4]، ونحن عندنا في القرآن {كانوا يُصرُّون على الحنث العظيم} فالحِنْث هذا شيءٌ سيءٌ، ولكن "يَتَحَنَّث" أي يُلقِي عنه الحنث.

مثالٌ آخر كما يقول بعضهم "الطبيب يُمرِّض فلانًا" أي يحاول أن يزيل عنه المرض، وليس المعنى أن يجعله مريضًا، فمن المعاني التي قيلت في كلمة "حرِّض" أي تَصرِف عنهم الحَرَض بالجهاد، أي إذا لم يجاهدوا؛ سيُهلَكون، فالحل: أن تقنعهم بالجهاد في سبيل الله، لأن الذي سيصرف عنهم الهلاك هو الجهاد في سبيل الله.

{حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ}

ثم ردّ عليهم سيدنا يعقوب بعد هذه المقالة: أنَّ ذِكري ليوسف وبكائي عليه ليس شكوى من الله لكم، فأنا لا أشكو الله لكم، ولكن ذكري ليوسف إنما لعلمٍ أعلمه من الله، وبكائي عليه إنما لعلمٍ علمته من الرؤيا التي رآها يوسف؛ فقال {إِنَّمَآ} بصيغة الحصر {أَشْكُواْ بَثِّي} -وذكرنا معنى البث- {وَحُزْنِيٓ إِلَى

---

[4] [عن عائشة أم المؤمنين:] أوَّلُ ما بُدِئَ بالرَّسولِ الوحيُ، قالت: كان يَتحنَّثُ في غارِ حِراءٍ، والتَّحنُّثُ: التَّعبُّدُ اللَّيالِيَ ذواتِ العدَدِ.
ابن عثيمين (ت ١٤٢١)، شرح النزهة لابن عثيمين ٢٠٨ • عبارة (والتحنث: التعبد) مدرجة من كلام الزهري تفسيرا للحديث

ٱللَّهِ} لا إليكم، -فكأنه يقول لهم "وما شأنكم، أنا أصلًا أشكو بثي وحزني إلى الله لا إليكم!، وأريد أن أخبركم أني أعلم من الله ما لا تعلمون، فبكائي هذا له سببٌ أنتم لا تعلمونه، ولكن سوف يأتي يومٌ وتعلمون سببه" {وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

- حينما تكلم يعقوب بهذا الكلام؛ وجد رقةً في أبنائه، فبدأ يَخرُج كلَّ ما في قلوبهم تجاه يوسف من حَسدٍ أو غير ذلك؛ فانتهز يعقوب هذه الفرصة، ثم ضمَّهم إليه؛ وقال {يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ} التحسس: استعمال الحواس للبحث، وهي قريبة من "التجسس" من الجَسّ أي أن تلمس الشيء، وبعضهم قال أن التحسس أوسع، ويوجد خلافٌ هل التحسس مع الخير والتجسس مع الشر، لكن يوجد حديثٌ أيضًا بالنهي عن التحسس، الشاهد أنه يقول تحسسوا أي استعملوا كل الحواس وبلطفٍ حتى تصلوا إلى يوسف.

فحينما قال يعقوب {وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} كأنه يريد أن يخبرهم "أنا أعلم أن الذئب لم يأكل يوسف" فكأنه يريد أن يُعرِّفهم أن القصة التي افتعلوها سابقًا ليست حقيقية؛ الأمر منتهي.. لذلك أنا أبكي على يوسف، لأنهم يقولوا له {تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ} فكأنه يقول لهم أننا جميعًا نعلم أن الذئب لم يأكل يوسف.

- {ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ} هذه الكلمة كانت عجيبة؛ أن يقول لهم اذهبوا لمصر تحسسوا من يوسف!! فكيف علم أنَّ يوسف في مصر؟ هو فقط رأى وفهم من الرؤيا ومن القميص الذي لم يُقطَّع أنّ يوسف لم يأكله الذئب، ولكن ما الذي أدراه أنه في مصر؟ لذلك قال بعض المفسرين إما أنه بدأ يُلقَى في روعه في هذا الوقت أن الملك هو يوسف، وتحسس ذلك من المعاملة ومن طريقة كلامه، لكنه لم يتأكد، أو بدأ يُلقَى في روعه أنه في مصر، من غير أن يظن أنه الملك؛ الشاهد: أن سواء هذا أُلقِي في روعه أو كان وحيًا، فهو بدأ يشعر بوجود يوسف في مصر؛ لذلك ربط بينهما؛ لأن الموجود في مصر بنيامين، وأخاهم الأكبر.

قال تعالى: {قَالَ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ} أنتم تلوموني على بكائي!، ولكن بكائي هذا لا يعني اليأس {وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ} فالبكاء لا يلزم منه القنوط، فالبكاء على شيء من الإنسان ليس علامةً على اليأس، بل هو علامة فطرة، فبكاء الوالد على ولده من الفطرة، وليس معناه عدم الرضا، فهذا ليس من السخط في شيء، فبكاء الإنسان على من يحب ليس من السخط في شيء، القضية ألا يجزع القلب، ولا يرفض القدر، بل يرضى، لكن البكاء لا علاقة بينه وبين السخط.

- {يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ} التي هي من رحمة الله سبحانه وتعالى الذي يحيي الموتى، فهو الله سبحانه وتعالى وبيده الروح فلا تيأسوا من روح الله الذي يحي الموتى {إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ} الكافر دائمًا يتعامل بالأسباب وفقط، قضية

أن الله سبحانه وتعالى يفعل شيئًا سواء بالتدخل المباشر أو بِكُنْ، فهذا الأمر لا يوجد عند الكافر، الكافر لا يُصدِّق إلا بالدنيا.

- كما قال ربنا سبحانه وتعالى في أول سورة الروم {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا } [الروم 6-7] ولكن أكثر الناس لا يعلمون عن قدرة الله شيئًا، ولكن يعلمون عن الظاهر من الحياة الدنيا، {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} التقابل آخر الآية وأول الآية التالية **"لا يعلمون ويعلمون"** أي لا يعلمون عن قدرة الله لكن يعلمون في الأسباب جيدًا، فهم رائعون وأذكياء جدًّا في التعامل مع الأسباب، لكن عند التعامل مع الله وقدرة الله، والتوكل عليه فإنهم لا يفقهون شيئًا في ذلك؛ -لذلك من الواجبات العملية تجميع كلمة {قومٌ لا يَفْقَهُون} في القرآن. أتت مع ثلاث أصنافٍ من الناس، جاءت مع من وانظر ما هي سياقاتها-. {إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ} إذًا الكافر لا يعتقد إلا بالأسباب وفقط، لكن قضية قدرة الله سبحانه وتعالى على فعل ما يشاء، والتوكل عليه، فذلك أمرٌ غير موجود عند الكافر؛ لذلك عندما وجد الكفار في قريش المؤمنين قِلَّةً في غزوة بدر قالوا هم والمنافقون {غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ} [الأنفال ٤٩] أيظنون أنهم سيهزموننا لأنهم مسلمين؟؟ {غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ}، فقال الله سبحانه وتعالى {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}، الله بعزته وحكمته سينصر المؤمنين عليكم.

{إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ} فمن المهم أن يتعلَّق الإنسان دائمًا بالله حتى مع وجود السبب؛ لذلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو عائد من الحديبية على إثر مطر قال (قال الله سبحانه وتعالى: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فمن قال...)[5]، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث القدسي ليُذَكِّرهم بهذا، (قال الله: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر فمن قال) على المطر (مُطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافرٌ بالله مؤمنٌ بالكواكب، ومن قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمنٌ بالله كافرٌ بالكواكب) تحدث العلماء والإمام النووي في شروحاتهم وشرح صحيح مسلم وغيره عن معنى الحديث، قالوا أنه لو المقصود بالكافر "الكافر الحقيقي" أي المشرك، فيكون هو من يعتقد أن هذه الكواكب تفعل هذا الفعل بعيدًا عن الله أي استقلالًا بدون تدبيرٍ من الله سبحانه وتعالى؛ فذاك كافر؛ لأنه يظن أن الكواكب وسير الكواكب والأفلاك تفعل هذه الأشياء بدون قدرة الله سبحانه وتعالى وهذا كفرٌ بالله سبحانه وتعالى، أو كفر نعمة، فالمفترض أن تنسب الشيء لله سبحانه وتعالى؛ لذلك -كما ذكر الإمام النووي- أنه حتى من يعتقد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يدبر الأمور وقال مطرنا بنوء كذا، ولا يعتقد

---

[5] [عن زيد بن خالد الجهني:] صَلَّى لَنا رَسولُ اللَّهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَةِ علَى إثْرِ سَماءٍ كانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمّا انْصَرَفَ أقْبَلَ علَى النّاسِ، فَقالَ: هلْ تَدْرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أصْبَحَ مِن عِبادِي مُؤْمِنٌ بي وكافِرٌ، فأمّا مَن قالَ: مُطِرْنا بفَضْلِ اللَّهِ ورَحْمَتِهِ، فَذلكَ مُؤْمِنٌ بي وكافِرٌ بالكَوْكَبِ، وأمّا مَن قالَ: بنَوْءِ كَذا وكَذا، فَذلكَ كافِرٌ بي ومُؤْمِنٌ بالكَوْكَبِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٨٤٦ • [صحيح]

أنها تفعل ذلك استقلالًا، لكنه قال هذا، فإن بعض أهل العلم يقولون أن هذا مما يُكره، فقل "مُطِرنا بفضل الله ورحمته لأنه سخر كذا وكذا"، الشاهد أن يتعلَّق الإنسان بالله سبحانه وتعالى لا بالأسباب.

- {فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ} من دخل على من؟ فلما دخل إخوة يوسف على يوسف، إذًا انتقل المشهد من الشام إلى مصر، انتقالٌ سريع للمشاهد {فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ} يوسف عليه السلام {مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ} هذه مقدمة، ماذا تريدون؟ {فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ} إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ}، قد يسأل سائلٌ أن يعقوب قال لهم {ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ}، فهل ذهبوا ليأتوا ببضاعة أم ذهبوا ليروا يوسف؟ فقالوا هذا من التحسس، فلا يصح أن يذهبوا مصر بدون سبب، فكأنهم ذهبوا لجلب البضاعة وفي الوقت ذاته يبحثون أو يتحسسون من يوسف وأخيه.

{فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ} قدموا مقدمة فيها استعطاف، وهذا كان أكثر مشهد وصل فيه إخوة يوسف إلى قمة الذلة بين يدي يوسف.

- سبحان مغير الأحوال حينما يتذكر الإنسان في أول القصة حينما أجمعوا أمرهم وألقوه في البئر وكانوا يضربونه ونزعوا قميصه، الآن هم يقفون بين يديه أذلة يستعطفونه، قالوا {مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ}، البضاعة هنا المقصود بها الثمن، كما ذكرنا جعل بضاعتهم في رحالهم أي الثمن الذي دفعوه.

- {وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ} أي أنهم قد جاءوا يأخذون طعامًا، فهم لا يزالون في حالة القحط، لم تنتهي سنين القحط بعد فجاءوا يأخذون الطعام فقط، لم يعد معهم أموال تكفي؛ لأن هذه المرة الثالثة التي يرجعون فيها، لم يعد معهم أموالٌ تكفي، فكلمة {بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ} بعض العلماء قالوا هي نوعٌ من الدراهم قيمتها قليلةٌ، فقديمًا إن لم يكن الدينار من ذهبٍ خالص يكن فيه نوع من ماذا؟ لا أريد أن أقول الغش، بل زيفٍ، به نوع من التزييف قليلًا، وذلك كان مُتعارفًا عليه، فكونه مزيف لا يعني كونهم مخادعين، لا، بل تكون قيمته أقل؛ لأنه ليس ذهبًا خالصًا. هذا معنى {بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ}.

وقيل {بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ} أي أنهم جمعوا كل ما عندهم؛ مثلًا عندهم زكائب أو حبال مقطوعة، كل ما يصلح للمقايضة، أي شيء عندهم كأثاث البيت، جمعوه وأرادوا أن يعطوه مقابل الطعام، هذا نوع من المعاوضة.

كلمة "مُّزْجَىٰةٍ"، ماذا تعني {بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ} الزج ما أصله في اللغة؟ الدفع، الزج بمعنى ماذا؟ الدفع، حسنًا ما معنى "بضاعة مزجاة"؟ ما علاقة الزج بالدفع؟ حاول الإمام الطبري أن يحلل اللفظة، فكأنها بضاعة لا تقبل إلا بدفعٍ، أي أنها لن تؤخذ إلا بدفعٍ سواءً بدفعٍ من المتكلم، فلابد أن يضيف للبضاعة استعطافًا؛ كي يوافق –المتلقي–، أو بدفعٍ من المتلقي، أن يتكرم هو ويقبل هذه البضاعة، أي أن هذه البضاعة لا تُقبل في حد ذاتها، {بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ} لابد أن تُدفع؛ كي تقبل.

كما لو كان معك شيءٌ مُقَطَّع أو أموالٌ مُقَطَّعة، فإما تترجَّى من يأخذها، فهذه مزجاة، تريد دفعًا من أجل أن تُقْبَل أو هو يدفعها، هو من يدفعها ويتكرم، فطلبوا منه أن يدفع البضاعة ويتقبل منهم، {بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ} تحتاج إلى دفع لتقبل.

- {فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ} لأنه لو أعطاهم على قدر مالهم لن يوفي لهم الكيل {فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ} قال بعض أهل العلم {وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ} أي رُدَّ إلينا بنيامين، لكن قالوها تعريضًا، لم يريدوا أن يطلبوها صريحةً، أظهروا الاستعطاف والذلة، ولكن الإمام الطبري رفض هذا القول –وإن كان مرويًا عن الإمام السدي–، رفض هذا القول وقال التصدق بمعنى التصدق العادي.

– ما الذي جعل بعض المفسرين يرفض بأن التصدق بمعنى التصدق المعروف الذي هو "أعطنا صدقة"؟

من رفض كان لأنه اختار أن هؤلاء –أي الأسباط أولاد يعقوب عليه السلام– كانوا من الأنبياء، قلنا أن هذه المسألة فيها خلاف سنذكره –إن شاء الله– في ختام السورة، والأنبياء لا تجوز عليهم الصدقة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (نحن معاشر الأنبياء لا تجوز علينا الصدقة)[6] لا ينبغي أن يأخذوا الصدقة، كان النبي صلى الله عليه وسلم تأتيه الصدقة فيرفضها، لكن تأتيه الهدية فيأخذها، وكانت هذه من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم، فمن اختار أنهم أنبياء رفض وقال {وَتَصَدَّقۡ} ليست بمعنى الصدقة لكن "أعطنا بنيامين" لكن من اختار أنهم ليسوا أنبياء، فإنه يرى أنه ما من مشكلة في طلبهم الصدقة.

{إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ} حينما رأى يوسف عليه السلام شدة مذلتهم ومهانتهم أمامه، وتذكر حال والده، وذكَّروه بالله {إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ}، وجاءه الإذن من الله سبحانه وتعالى، قال كثيرٌ من أهل العلم لم يتمالك نفسه وبكى ورقَّ حاله لإخوته، رقَّ حاله لأبيه وقرر يوسف في هذه اللحظة أن يكشف عن الخطة التي فعلها، وأن يُبَيِّن الأحداث، وأن يُظهِر كل ما سبق؛ أنه كان مكيدة كادها يوسف عليه السلام لهم بترتيبٍ وبوحيٍ من الله سبحانه وتعالى، فقال يوسف {قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ} وكأنه يقول أنتم كنتم في حالة جهل، أما أنتم الآن وصلتم إلى حالة نضج، {إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ} أي أنَّ فِعْلَكم الذي فعلتموه في أول الأمر كان جهلًا منكم، أما ظنِّي فيكم الآن حينما رأيت شفقتكم، ورأيت عطفكم، ورأيت استجابتكم لوالدكم، الآن أيقنت أنكم تخليتم عن حالة الجهل. فقال {هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ} بعض المفسرين قال هم لم يفعلوا بأخيه شيئًا، بل إن يوسف هو من أخذ أخاه بنيامين، فقالوا أن ما فعلوه بأخيه أنهم فرَّقوا بينه وبين يوسف، فقد قلنا أن يوسف وبنيامين كانا من أمٍّ واحدة قيل أن اسمها راحيل، وأن بقية الإخوة كانوا من أكثر من زوجة، فكان بنيامين يعيش وحيدًا لا يجد أن يتكلَّم معهم أو يخرج لهم أسراره، وكان يخاف منهم، هم أخذوا أخاه

---

[6] نحنُ معاشِرَ الأنبياءِ لا نُوَرِّثُ ما تركناهُ صدقةٌ
الشوكاني (ت ١٢٥٥)، فتح القدير ٤٥٦/٣ • ثابت

ورموه في البئر وقالوا أكله الذئب، فكان بنيامين يخاف منهم أن يفعلوا به ما فعلوه بيوسف؛ لأن يعقوب كان يحب بنيامين أيضًا فكان دائمًا يعيش في حذرٍ طوال فترة عيشه مع يعقوب عليه السلام وإخوته؛ لذلك لما وصل إلى يوسف {قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ..}، لقد صِرْتَ في أمانٍ، دعك من إخوتك؛ هذا ما فعلوه بأخيه، أو أن المقصود هو قولهم {إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ}.

{هل علمتم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} قال بعض أهل العلم أن يوسف عليه السلام في هذه اللحظة التي قال فيها هذا القول رفع التاج عن رأسه، وخلع قميص الملك فرأوه على حاله، ورأوا ابتسامته التي كانوا يعرفونها، ويعرفونه بها.

- {قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ}، تخيل المشهد، آخر مرة رأوا يوسف كان في البئر، وبعد ما أخرجوه على الخلاف الذي ذكرناه؛ سواءً باعوه ببضاعة مزجاة، هناك البضاعة المزجاة كانت شراءه في بداية القصة {بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَ ٰهِمَ مَعْدُودَةٍ}، كان ثمنًا بخسًا، والآن جاءوا بثمنٍ بخسٍ أيضًا {بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ}.

– {قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ} قد تركناك في الصحراء! بعناك كعبد، من الذي جعلك ملكًا؟!، من الذي أتى بك إلى هنا؟!

{قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ} أضاف أخيه إليه حتى لا يتكلمَ عن نفسه فقط، {قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا} ثم أعطاهم القاعدة التي بها يُصْطفى الإنسان في الدنيا وفي الآخرة **{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}**.

– طوال حياتك تأتيك اختيارات معينة، طوال عيشك في الحياة تأتيك ابتلاءات واختبارات، اختبار يدفعك أن تَسْرق، أو تأخذ رشوة، أو تزني، أو تقع في الحرام، أو تختار الدَّنيَّة في دينك، أن تختار ما هو ليس الأَوْلى بك كمسلم فيه عزة الإسلام.

طوال حياتك أنت تعيش في مفارق طرقٍ تقابلك طوال سيرك إلى الله سبحانه وتعالى، الذي يتقي ويبحث عن التقوى فإن اختيار التقوى يستلزم الصبر؛ لأن التقوى لابد لها من بلاءٍ، فلا يأتيك النعيم بمجرد اختيارك التقوى، بل ستُبتَلى.

حينما اختار يوسف التقوى مع امرأة العزيز ابتلي بالسجن فصبر، لذلك قال بعض أهل العلم {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ} أي يبتعد عن الزنا، {وَيَصْبِرْ} أي على السجن، فهذه هي الابتلاءات التي مر بها يوسف، وهذا من باب المثال، لكن عمومًا طوال حياتك ستتعرض لاختيارات، اختيارك لزوجتك، واختيارك لعملك،

واختيارك لسكَنِك، واختيارك لوظيفتك، واختيارك لوظيفتك في الدين، كل هذه الاختيارات تتعرض إليها طوال السنين.

- أحيانًا يختار الإنسان الأسهل، يختار الأيسر، ولكن هذا لن يُصطفى، لن يصل إلى مراتب الكمال، فالعز والنعيم لا يُدرك بالنعيم لابد أن يُضحِّي الإنسان، فلابد أن يُبتلى الإنسان، فكيف يبحث الإنسان عن الاصطفاء في الدين وأن يكون من مُلوك الآخرة ودائمًا يختار الأيسر والأسهل على نفسه وعلى بدنه كيف؟! كيف يَرُومُ ذلك؟ **إذا كانَتِ النُفوسُ كِباراً... تَعِبَت في مُرادِها الأَجسامُ.** لابد حينما تكون النفوس عظامًا وتكون النفوس كالجبال فلابد أن تتعب الأجسام لتُلَبِّي احتياجات هذه النفوس العظيمة لأصحاب الهمم العالية.

فيوسف عليه السلام كان يتعرض لاختيارات، تخيل! حاشاه عليه السلام، فلنُسْقط الأمر على شخصٍ آخر، لن نتكلم عن سيدنا يوسف، بل تخيل أن شخصًا تعرَّض للموقف الذي تعرَّض له سيدنا يوسف، واختار –والعياذ بالله– أن يسقط في الفاحشة مع امرأة العزيز فكيف ستكون سيرته؟ مجرد عبدٍ وقع في الزنا، لكن حينما يختار الإنسان الصبر والتقوى يُرفع في الدنيا قبل الآخرة (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين)[7]

فالإنسان حتى ينال الرفعة في الدنيا وفي الآخرة، بل قد يُرفَع في الآخرة، ولا ينال هذه الرفعة ولا تكون ظاهرة للناس في الدنيا، لكن رفعة الآخرة تكون بالصبر.

- انتبهوا، أحيانًا تتعرض لاختيارات في طريق الالتزام، وفي سيرك إلى الله {مَنْ يَتَّقِ} يختار الأفضل والتقوى عند الله ثم {يَصْبِر} على اختياراته، فهو من المحسنين ولن يُضَيّع الله أجره.

كثيرًا ما يسألني أحدهم فيقول: عليّ أن أختار بين أمرين كذا وكذا فأيهما أختار؟ سواء تعلق هذا الاختيار بوظيفة، أو زوجة أيًّا كان، ثم يقول لك "ولكني خائف من التضحية، فلا تأتي –الفرصة– ثانيةً أو خائف أن أضحي فتَضِيع، فتقول له أتخاف أن تُضحي فتضيع في الدنيا، أم تضيع عند الله؟ قد تضيع في الدنيا فلا تأتي ثانيةً، أما إذا فعلتَها خالصةً لله فلن تضيع، أحيانًا يريد المرء أن يضحي بشيءٍ كبيرٍ جدًّا، فيقول يا رب يا رب أنا سأضحي، يا رب لن آخذها، كيف تتردد؟ سبحان الله! {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}.

---

[7] [عن عمر بن الخطاب:] ، أَنَّ نافِعَ بنَ عبدِ الحارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بعُسْفانَ، وَكانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ على مَكَّةَ، فَقالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ على أَهْلِ الوادِي، فَقالَ ابْنَ أَبْزى، قالَ: وَمَنِ ابنُ أَبْزى؟ قالَ: مَوْلًى مِن مَوالِينا، قالَ: فاسْتَخْلَفْتَ عليهم مَوْلًى؟ قالَ: إنَّه قارِئٌ لِكِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وإنَّه عالِمٌ بالفَرائِضِ، قالَ عُمَرُ: أما إنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ قدْ قالَ: إنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بهذا الكِتابِ أَقْوامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٨١٧ • [صحيح] •

وكما ذكرت في خطبة اليوم عن الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وسقطت صخرة وسدت عليهم باب الغار، تضرع الأول بعملٍ صالح "بر الوالدين"، وتضرع الثالث بعملٍ صالح "الأمانة"، وتضرع الثاني بأنه "تَرَك الحرام لله"؛ فقال فقمت عنها وهي أحب النساء إليّ، فتحركت الصخرة، قال "اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء مرضاتك فرج عنَّا ما نحن فيه"، فتحركت الصخرة قليلًا غير أنهم لا يستطيعون الخروج؛ **تركها لله**، وحينما تركها لم يكن يعلم أنه في يوم من الأيام سيأويه المبيت إلى الغار، وتسقط الصخرة، ويتضرع بذلك، **هو تركها لله، فهذه هي القاعدة** {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}.

- {قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا} انتهى الأمر، هنا خرج كل ما في القلوب، خرج كل ما في قلوبهم من حسدٍ أو شيءٍ أضمروه ليوسف، اعترفوا أن التفضيل بيد الله، وهذه مشكلة من يَحسد، فهو دائمًا يعتقد أن التفضيل قضية مُنازعة أسباب، لابد أن يعترف أن هذا بفضلٍ من الله، {قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا} اكتشفنا أننا كُنَّا على خطأ {وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ}.

- {قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} هذه الكلمة ليست سهلةً أبدًا، أنْ تتذكر تفاصيل الأحداث التي حدثت معك، نزعوا قميصه، وألقوه عاريًا في البئر، وباعوه بثمنٍ بخسٍ، وأصبح عبدًا، ثم يقول لهم حينما يصبح مَلِكًا أمامهم {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} هذا وحسب! لو كنتُ أنا سأُسامحهم لظللتُ على الأقل عشرة أيام أُعاتِبهم وأُبَكّت فيهم، وأَمُنُّ عليهم، على الأقل سآخذ حقي بالكلام.

أحيانًا تكون غير قادر على هذا الأمر، قد تفعل لشخصٍ أمرًا بسيطًا جدًّا، خدمةً بسيطة تظل تُذَكِّرُهُ بها؛ أتذكر لما فعلت لك كذا؟! لا مشكلة، حصل خير، كلما فعل لك موقفًا قلت "يا أخي سبحان الله، الناس التي تنسى المعروف! ولكنها كانت لله" لله! كيف!، قد أخذت حقك كلامًا {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى}{سورة البقرة – الآية 263}

- انظر إلى كلِّ ما فعلوه ويقول يوسف هذه الكلمة {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ} لذلك اختلف العلماء في كلمة {الْيَوْمَ} هل تتبع {تَثْرِيبَ} أم تتبع {يَغْفِرُ}؟، أي هل تَقْرأ {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} وتقف ثم تقرأ {يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ}، أم تَقْرأ وتقول {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ} وتقف ثم تقول {الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ}؟من قال {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} أي إذا كُنتُ وفي قمة غضبي، وفي قمة مُلكي عفوت عنكم، فمن المؤكد أني سأعفو عنكم بعد ذلك لأن لحظة الغضب الأولى تكون أشد لحظة.

ومن قال {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ} ويقف قال جاءه وحي من الله وبشرهم، أي ليس أنه فقط عفا عنهم؛ لذلك يحب كثيرٌ من القراء قراءتها {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ} ثم يقف ويقرأ {الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ}، أي عفا عنهم وبشرهم بمغفرةٍ من الله، فأعطاهم العفو، وزيادةً على ذلك بشَّرَهم بالمغفرة! سبحان الله، يتعجَّب المرء، كيف يفعل هذا؟ حسنًا فليُخْفِي عنهم المغفرة بعض الوقت وليأخذ منهم أي شيءٍ مقابلها!

- قال {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ} وقد قيل في بعض التفاسير من الإسرائيليات أن المغفرة ظلت محجوبةً عنهم عشرين سنة، وكان يعقوب ويوسف يدعوان الله، يقومان الليل يدعوان لهم عشرين سنة حتى عفا الله عنهم، لكن لو أخذنا القول {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ} كما قال بعض أهل العلم أنه قد جاءه وحيٌ من الله أن الله عفا عنهم.

العجيب أن سورة يوسف متى نزلت؟ في مكة أم في المدينة؟ نزلت في مكة وقت الاستضعاف، ومن المعاني التي قد نذكرها إن شاء الله في المرة القادمة، لعلها تكون المجلس الختامي بإذن الله، الشاهد أن من معاني السورة تذكير النبي صلى الله عليه وسلم أن الله سيلطف به، وكما آذاه قومه فسينتصر عليهم، كما نصر الله عزَّ وجلَّ يوسف على إخوته، وكما مَكَّن الله عزَّ وجلَّ ليوسف فوقف في مقام العفو، فسوف يأتي يوم ويقف محمدٌ صلى الله عليه وسلم في مقام العفو.

- **الشاهد:** هنا أثرٌ جميلٌ مَرْويٌّ عن سيدنا علي ذكره الإمام الطبري وغيره، أنه لما جاء أبو سفيان قُبَيْل فتح مكة ورأى الجيوش القادمة مع النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة، ذهب مُسْرعًا هو وغيره إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه، فأعرض النبي صلى الله عليه وسلم عنه، تخيل أبو سفيان وما فعله في غزوة أحد، ومقتل حمزة وغير ذلك، فأعرض النبي صلى الله عليه وسلم عنه، فذهبوا إلى أبي بكر ليشفع لهم فأعرض عنهم أبو بكر، فذهبوا إلى عمر فأعرض عمر، فذهبوا إلى علي وكانت بينهم قرابة، فذهبوا إليه ليشفع لهم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال اذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا لقيتموه فقولوا له {تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ} فإنه –أي النبي صلى الله عليه وسلم– لن يرضى أن يكون أحدٌ أحسن مردودًا منه، لن يرضى أن يكون لسيدنا يوسف ردٌّ ولا يكون له صلى الله عليه وسلم رد، فبمجرد أن تقولوا له هذه الآية سيقول مباشرةً {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ}، لأنه لا يحب أن يكون أحدٌ أحسن مردودًا منه.

ففعل ذلك أبو سفيان وقال للنبي صلى الله عليه وسلم {تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ} فقال له النبي صلى الله عليه وسلم {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ}، حديثٌ حسَّنه بعض أهل العلم، وقال النبي أيضًا هذه الآية في فتح مكة لما قالوا له "ماذا تفعل بنا؟!" قال {لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين} وكأن النبي صلى الله عليه وسلم ظلَّ مُتذكِّرًا لهذه الآية، كأنَّه كان

يعلم أن هذه الآيات بُشرى، بالرغم من أنها جاءت في وقت استضعاف إلا أنها بشرى بالتمكين بإذن الله سبحانه وتعالى، ربنا يرزقنا ونقول هذه الآية، ونحيا إلى أن نقول هذه الآية.

قال {لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} ثم لم ينسَ والده، لأن الإذن جاء من الله، طوال الفترة الماضية –كما اختار جمعٌ من المفسرين– أنه كان يُخَبِّئ أَمْرَه عن أبيه ابتلاءً من الله سبحانه وتعالى وبوحيٍ من الله سبحانه وتعالى فجاءه الإذن، فقال يوسف عليه السلام {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا} نفس القميص الذي كان سببًا للحزن يأتي الآن قميص ليكون سببًا للفرح، وقال بعض أهل العلم لماذا خلع قميص الملك؟

- قال حتى يُصدِّق يعقوبُ أبناءَه، أولاده سيعودون ليقولوا له يوسف في مصر، ويريدك أن تذهب بكل عائلتك –يوسف عليه السلام طلب أن تأتي كل العائلة– فقد لا يُصدِّقهم يعقوب عليه السلام لأنه جَرَّب عليهم الكذب في أول أمرهم، فقال اذهبوا بقميصي كأنه علامة صدق، فإذا رأى قميصَ الملك صدَّقهم، فلقد كان من عادة الملوك ألا يخلعون قميصهم إلا للقريب، فلا يأخذ قميص المِلْك أي أحد.

{اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا} لأن العمى أصابه، وابيضت عيناه وفقد بصره، {يَأْتِ بَصِيرًا} قيل يأت بصيرًا ليست بمعنى يُصبح بصيرًا أي يرى، بل يُصبح بصيرًا ويأتي إليّ، وأنتم أيضًا تأتوني بكل أهلي معه {يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ}.

- كذلك تحدث العلماء كيف علم يوسف أن القميص حينما يُلقى على وجه أبيه سيؤدي إلى عودة بصره؟ قال كثيرٌ من المفسرين أن هذا بوحيٍ من الله، ولكن بعض المتأخرين كالإمام القاسمي وقَلَّدَ في ذلك الإمام الرازي من المتقدمين حاول أن يُحللها نفسيًّا فقال: كما أن شدة الحزن قد تؤدي إلى فقد البصر فإن شدة الفرح قد تؤدي إلى قوةٍ بدنية تؤدي إلى عودة البصر.

أحيانًا تحدث تَكَلُّفَاتٌ عجيبة! هنا مثلًا تكلَّم بعض المتكلفين في الإعجاز العلمي على مسألة القميص والعرق، وأننا قد نستخلص منه مادة تُعيد البصر، فأحيانًا قد يحدث تكلف في موطن ليس هذا هو محله كما ذكرت في المرة الماضية.

الشاهد {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} هنا في التاريخ لحظة فارقة –وليس محلها في سياق السورة–، هذه لحظة فارقة في فهم قصة بني إسرائيل عامَّةً في القرآن، لحظة انتقال بني إسرائيل، مَن هو إسرائيل؟ يعقوب، لحظة انتقال بني إسرائيل من الشام وتوقف دعوة إسرائيل في الشام وبدء الدعوة في مصر واستمرار دعوة بني إسرائيل في مصر إلى مجيء موسى عليه السلام.

- {حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ} {سورة غافر – الآية 34} من الذي قال هذا الكلام في هذه الآية؟

– {حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ} أي يوسف {قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ} في أي سورة هذه الآية؟ سورة غافر، ومن الذي قال هذه الآيات؟ مؤمن آل فرعون، ويتكلم مع فرعون في وجود موسى عليه السلام {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ} في سورة غافر كان يُذكرهم بلحظة مجيء بني إسرائيل التي هي تلك اللحظة التي قال فيها يوسف عليه السلام {وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ}.

فانتقل بنو إسرائيل من الشام واستوطنوا مصرَ، وظلوا يحاولون الدعوة في مصر ومرت عليهم أجيالٌ تلو أجيال إلى أن جاء الأمر بعودة بني إسرائيل مرةً أخرى إلى فلسطين، أن يذهب موسى عليه السلام ليستخرج بني إسرائيل، فبعث الله سبحانه وتعالى موسى ليُخرج بني إسرائيل من أرض مصر ويذهب ليفتح فلسطين الأرض المقدسة، وأيضًا رفض بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة فعاقبهم الله بالتيه.

{وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} نَفَّذُوا الأمر مباشرةً، {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ} أي بدأت العير تخرج من مصر، {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ} وهذا أيضًا من نبوة يعقوب، قال {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ} يُوجد أثرٌ جميلٌ جدًّا مَرْوِيّ عن بعض السلف أن الريح استأذنت ربها أن تذهبَ بريحِ قميص يوسف إلى يعقوب، فالريح تريد أن تبشر يعقوب.[8]

خُلُق السعي للبشرى خلقٌ مهمٌّ، أن تريد أن تُفرِح غيرك، ككعب بن مالك لما ظل خمسين ليلةً مُعاقبًا لا يُكَلِّمه أحد لما تخلف عن غزوة تبوك، فحينما جاءت البشرى أراد الكل أن يبشروه حتى زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، ولأن البشرى جاءت في الثلث الأخير من الليل، لا أتذكر أين كان النبي صلى الله عليه وسلم؛ عند أم سلمة أو مَن مِنْ زوجاته؟ قالت أفلا نُبشِّره؟ كانت تريد أن تبشِّره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو بشرناه في الثلث الأخير سيمتلئ البيت علينا في الثلث الأخير من الليل، فلننتظر الصباح، فمع صلاة الفجر أخذ أحدهم الفرس وتسابق وجري لكعب بن مالك، وآخر لكي يسبق الفرس قام يبشره من بعيد، تنافس الكل ليُبَشر كعب بن مالك بتوبة الله عليه[9].

---

[8] حدثنا ابن وكيع ، قال، حدثنا جرير ، عن أبي سنان ، عن ابن أبي الهذيل قال: قال لي أصحابي:إنك تأتي ابن عباس ، فسله لنا. قال: فقلت:ما أسأله عن شيء ، ولكن أجلس خلف السرير، فيأتيه الكوفيون فيسألون عن حاجتهم وحاجتي ، فسمعته يقول: وجد يعقوب ريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال ، قال ابن أبي الهذيل: فقلت: ذاك كمكان البصرة من الكوفة. (من تفسير الطبري)

[9] فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا. قال: ثم صليت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيتٍ من بيوتنا, فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منّا، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت, سمعتُ صوت صارخٍ أوفى على جبل سَلْع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر! قال: فخررت ساجدًا, وعرفت أن قد جاء فرجٌ. قال: وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر, فذهب الناس يبشروننا, فذهب قِبَلَ صاحبي مبشرون, وركض رجل إلي فرسًا, وسعى ساعٍ من أسْلَم قِبَلي وأوفى على الجبل, وكان الصوت أسرعَ من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه

فحينما يتكاتف المجتمع ويسعى للبُشرى، أن تأتي مثلًا لأحدهم بنتيجته، وتعلم أنه قد نجح فتجري لكي تبشره.

قيل أن الريح قد استأذنت ربها أن تذهب وتبشر يعقوب، فكأن الكون كله يتفاعل مع المؤمن، حتى الريح كانت متعاطفة مع سيدنا يعقوب، لكنها لم تفعل هذا إلا بعد أن استأذنت ربها كما قيل.

- {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} لكني لا أريد أن أنشر هذا الكلام {لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ}، الفَنَدْ: قيل هو أن يُتَّهم المرء بالسخرية أو بالاستهزاء أو بالتكذيب أو بالتخريف من الكِبَر، فإذا كبر الإنسان اتهم بالخَرَف، فـ {لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ} أي تتهموني بهذه الأوصاف، كـ "يُخَطِّئ فُلانًا" أي يتهمه بالخطأ، "يُجَرِّم فُلانًا" أي يتهمه بالجريمة، فـ "يُفَنّد فُلانًا" أي يتهمه بالفند، والفند كما قلنا هو الاستهزاء، والسخرية، والتكذيب، والتخريف.

فقيل {لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ} أي لولا أن تتهموني بهذا لنشرت هذا الخبر، وقلت يقينًا إني لأجد ريح يوسف، بالرغم من أنه يُكلم بعض بَنيه أي أحفاده وبقية أقربائه!، لأني تعجبت من قول بعض المفسرين هنا –وقد يكون عندي خلطٌ للأمور–، قال بعض المفسرين {قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ} أن قائل هذا الكلام هو إخوة يوسف، ولكن إخوة يوسف غير موجودين هنا، فأين إخوة يوسف؟ في الطريق، انتبهوا، {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ}، أين إخوة يوسف؟ في الطريق من مصر للشام.

فلذلك قال بعض المفسرين {قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ} أن هذا سوء أدبٍ من إخوة يوسف، لا ليس إخوة يوسف من قالوا هذا الكلام، بل بعض أقربائه وأهله.

{قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ} نحن قلنا لك، ستظل تذكر يوسف حتى تكون حرضًا، نحن ذكرنا لك، مع أن الذي قال {حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا} هم إخوته، لكن أقصد أن قومه رأوا أن شدة تعلق يعقوب بولده قد تصيبه بالفند، أشبه بالسخرية، والاستهزاء أو بالتخريف {قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ}.

بشارته, والله ما أملك غيرها يومئذ, واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فتلقَّاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة ويقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك! حتى دخلت المسجد, فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد حوله الناس, فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهَرول حتى صافحني، وهنأني, والله ما قام رجل من المهاجرين غيره = قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة = قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، وهو يبرُق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك! فقلت: أمن عندك، يا رسول الله, أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله! وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأن وجهه قطعة قمر, وكنا نعرف ذلك منه.(من تفسير الطبري)

{فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ} فاء السرعة، وكأن العير كانت تأتي مسرعة، ذكر بعض أهل العلم مرويًّا عن كثيرٍ من السلف أن الأبناء العائدين الآن، كم هم العائدين؟ الأحد عشر، رجعوا جميعًا ماعدا يوسف، وإن كان بعضهم قال أنه أبقى معه بنيامين، لكن الغالب من السياق أنهم عادوا كلهم.

{فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ} قال بعض أهل العلم أن البشير هنا كان اسمه يهوذا، وهو من أخذ القميص الغير مقطوع والمُلَطَّخ بالدم وذهب إلى يعقوب، فكان أول من دخل على يعقوب وقال له إن ابنك أكله الذئب، فأصابه الحزن والغم، فقال دعوني أنا كما أدخلتُ عليه الحزن سأُدْخل عليه الفرح.

{فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ} ينبغي إذا أخطأ الإنسان في شيءٍ أن يحاول تعويض ذلك، مثل سيدنا وَحْشيّ لما قتل سيدنا حمزة، فكان يحاول البحث عن رؤوس الكفر ليقتلهم، لذلك أبلى بلاءً حسنًا -كما قيل- في معركة اليمامة، وقيل -على خلافٍ بين المؤرخين- أنه الذي قتل مسيلمة الكذاب فقال "قتلت خير الناس وقتلت شر الناس"، قتلت خير الناس أي حمزة، وقتلت شر الناس أي مسيلمة، فمهم أن يحاول الإنسان تعويض ما فعل من أفعال.

{فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ} أي ألقى القميص، ألقى قميص يوسف {عَلَىٰ وَجْهِهِ} أي على وجه يعقوب، {فَارْتَدَّ بَصِيرًا} كما أخبر يوسف؛ فيبدو أنه كان بوحيٍ من الله، فحينما وجد يعقوب هذا الأمر نظر إلى من حوله و {قال أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا}، انتهى كل شيء جاء القميص، وها هو اعترافٌ رسميٌّ أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنه حي باقٍ.

- {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ}، هناك قال لهم يوسف عليه السلام مباشرةً {لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ} عفا عنهم مباشرةً، نسيت أن أقول لكم أن التثريب يأتي بمعنى: التعيير أو كثرة اللوم، اختلفوا في أصلها اللغوي "الثَّرْب" قيل أنها مادة دهنية تكون على الكَرِش والأمعاء بالداخل، بعضهم قال ما علاقة التثريب بهذا؟ قالوا أن الذي يُكثر اللوم والعتاب كأنه يضع طبقةً دهنيةً على من أمامه، كأنه وَضَع حاجزًا بينه وبين الذي أمامه بالتعيير، -هو خلافٌ لغوي كي لا أُطيل- الخلاصة هو بمعنى التعيير.

فيوسف أجاب مباشرةً قال {لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ}، هنا لما طلبوا من يعقوب {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي}، فتعجَّب العلماء وقالوا كيف يُجيب يوسف مباشرةً ويقول {لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ}، ويعقوب يقول {سَوْفَ}، قالوا أن من رحمة وشفقة الوالد بولده أنه كان ينتظر أرجى الأوقات للدعاء، فقالوا {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي}

على قولين مشهورين ذكرهما الطبري:

*سوف أنتظر قيام الليل، في الثلث الأخير من الليل وأستغفر لكم ربي في هذا الوقت.

*وقيل سوف أنتظر ليلة الجمعة التي هي قُبَيْل المغرب ساعة الإجابة.

الشاهد أنه قال سأنتظر، وهذا من حكمة الأب وشفقة الأب، سأنتظر ساعة إجابة أدعو الله لكم ليغفر لكم {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي}.

- هناك معنىً جميلٌ ذكره الإمام القاسمي عن المهايمي أنهم قالوا {يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا} لم يقولوا استغفر لنا ربنا، قالوا استغفر لنا ماذا؟ قالوا {يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}.

"استغفر" فعلٌ يتعدى للذنب، تطلب المغفرة من الله للذنب، فأنت قد تقول "استغفرُ اللّهَ ذنبي" فتأتي بالمفعولين، هم ذكروا مفعولًا، وسيدنا يعقوب ذكر المفعول الآخر قالوا {يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}، وهو قال لهم {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ} لم يقل ذنوبكم {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي}، فقال ذكروا الذنوب لأنهم كانوا يذكرون قهرَه أي قهر الله، وذكر ربَّه لأنه كان يذكر رحمتَه أي رحمة الله، هل اتضح الفارق بين الاثنين؟

- لأنه يريد أن يقول لهم هذا مقام الرحمة فلنذكر رحمة الله، لا نذكر الذنب {قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

- {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} ما أجملَ مشاهد الفرح! من عَايَش القصة، ويا ليتك لو تقوم وتصلي قيام الليل بالقصة كاملةً وتتألم مع آلام يعقوب، وتحزن مع أحزان يوسف، وتصبر مع صبر يوسف، وتصبر مع صبر يعقوب، حينما تُعايش هذه الأمور تستلذ بمشاهد الفرح، لأن الإنسان المؤمن لابد أنه سيُبْتَلى في هذه الحياة، فيكون له سلوى، ويكون له من يتأسَّى به، كما قال ربنا سبحانه وتعالى للنبي صلى الله عليه وسلم في ختام سورة هود، أن جاءك في السورة مَنْ تتأسَّى به، ومن تَتَصبَّر به.

فهنا ما أجمل مشاهد الفرح، لو أنك تُعايش القصة وأنت تقرأ السورة من أولها هنا سيبدو عليك الفرح، وتخرج منك في هذه اللحظات دموع الفرح، في أول السورة تخرج منك دموع الحزن، الذي يقرأ سورة يوسف ويُعايشها أول السورة تكون دموعه ساخنة، وآخر السورة تكون دموعه باردة لأنها دموع الفرح.

{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} أخيرًا حدث اللقاء، هذا مشهدٌ مُرْتقبٌ جمع الشمل، وجمع الأحباب، لذلك يوسف عليه السلام لما كان يتذكر النعمة كان يُكثِر من نعمة الجمع {أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ} ما يُركِّز عليه مسألة تجمُّعِه مع الناس.

{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} الخلاف هنا هل دخلوا عليه القصر أم دخلوا عليه حدود مصر؟، أي هل يوسف عليه السلام خرج إلى حدود مصر ومعه الملوك ليستقبلهم، وهذا مرويٌّ عن بعض السلف، أم ظل يوسف في قصره وأرسل إليهم من يستقبلهم؟ {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ} هل دخلوا عليه حدود مصر وكان هو منتظرهم أم دخلوا عليه القصر؟

{آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} الذي قال أنه كان على حدود مصر فقال {ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} لأنه قابلهم على الحدود، والذي قال دخلوا عليه القصر، حينئذٍ تكون {ادْخُلُوا مِصْرَ} بمعنى امكثوا في مصر، امكثوا في مصر إن شاء الله آمنين.

يُطمئنهم بكلمة {ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} يطمئنهم أن يوسف عليه السلام وصل من التحكم في الملك إلى درجة أنه لم يعد هناك خوفٌ على ممارسة بني إسرائيل للعبادة، فلن يطمئنَ يعقوب إلا وهو يقيم الشعائر، لن يحدث الأمن ليعقوب إلا وهو يقيمُ شعائرَه، فيقول لهم اطمئنوا لن يحدث لكم هنا أي أذى، لأن هناك الكثير من الآثار الإسرائيلية أن الملك مات، وكان له ابنًا صار هو الملك، وكان الابن يرجع إلى يوسف عليه السلام في كل شيءٍ، وهذا مذكورٌ في التوراة، وكأن يوسف حجب هذا الابن وكان هو القائم بكل الأمور.

{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} خصَّ الأبوين لأنه قد التقى من قبل مع إخوته، وقال {لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ}، فخصَّ الأبوين، وضَمَّهما إليه وهذا من البر.

الخلاف هنا هل أبويه هما أبوه وأمه، أم أبوه وخالته؟ الذي قال أن أمه قد ماتت قال أبوه وخالته، وهذا مرويٌّ في الإسرائيليات، الطبري رفض هذا وقال طالما قال الله سبحانه وتعالى {أَبَوَيْهِ} إذًا هما أبويه ولا داعي لأن نُغير في الكلام، فمَالَ إلى أن أمه لم تمت، وعدم ذكر أمه في القصة لا يعني أنها قد ماتت، وإن كان هذا اختيار بعض من المفسرين.

الشاهد ذكرنا هذا الخلاف في تفسير ماذا؟ في أول السورة في تفسير الشمس والقمر {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} من الذي سيسجد؛ الأم أم الخالة.

{وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ} خَصّ أبويه أيضًا للبر، حتى يكون موطن سجود الأبوين أعلى من موطن سجود الإخوة، {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا} أي جميعًا حتى تتحقق الرؤيا، حينما تقرأ هذه الآية تزداد يقينًا بموعود الله في أول السورة {يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا}، وفي آخر السورة {يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ}، في أول السورة طفلٌ يجري على أبيه ويرتعش خائفًا من رؤيا، وفي آخر السورة شابٌّ فتيّ يقول لأبيه بعدما كبر {يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا}.

- من المواضيع المهمة في القرآن موعود الله سبحانه وتعالى، الثقة في موعود الله، وكما قال ربنا عن رجوع موسى إلى أمه في أول القصص {وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} {القصص 13} هذا مهم أنْ يُعْلَم أن الله سبحانه وتعالى إذا وعد بشيء فهو حقٌّ، عدم فهمك للوعد أو اختلاطك في فهمِ الموعود لا يجعلك تُسيء الظن في قدرة الله.

{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ}، {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ} أي كلَّهُم {لِي سَاجِدِينَ}، {وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ} تذكر الآية في أول السورة {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ} هذا يجعلك تزداد دائمًا يقينًا في موعود الله، فإذا وعد الله سبحانه وتعالى بنصرة المؤمنين المستضعفين فالله قادرٌ على ذلك حتى لو مِتَّ وأنت لم ترَ ذلك، حينما تموت وأنت ترى المؤمنين مستضعفين تموتُ مُوقنًا أنَّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على نصرة المؤمنين، ولكن يؤخره إلى أجلٍ مسمًّى، وأن الوعد جاء للمجموع لم يأتِ للأفراد، أن الوعد بالنصرة جاء لمجموع المؤمنين لم يأت لأفرادهم.

- فليس من الضروري أن يرى كل الأفراد النصر، كان الوعد ينزل بنصرة النبي صلى الله عليه وسلم وكان من الصحابة من مات مستضعفًا في مكة، ماتت خديجة رضي الله عنها في شِعْب أبي طالب وقد ماتت موقنةً بموعود الله، ومات مصعب بن عمير في أُحُد ولم يرَ فتح مكة، ولكنهم ماتوا موقنين بأن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على نصرة أهل الإيمان، فلا يشك الإنسان مهما رأى من أحداث، لا يشكُّ أبدًا في موعود الله ولا يشك أبدًا في قدرة الله، فهو قادرٌ على أن يحقق لك ما تتمناه، الله قادرٌ على أن ينصر الدين، الله قادر على أن يفعل لك وأن يحقق لك ما تتمناه لنصرة دينك.

{قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي} دائمًا في موطن النعمة وموطن الملك يتذكر الإنسان فضل الله عليه، حتى لا ينشغل بالافتخار، دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة في الفتح وهو مُطأطئ رأسه حتى تكاد لحيته تَمَس الرحل، كان النبي صلى الله عليه وسلم في قمة الافتقار لله سبحانه وتعالى، وصلَّى ثمان ركعاتٍ قيل أنها الضحى وقيل أنها شكر لله على نعمة الفتح.

- يتذكر الإنسان في مواطن النصرة اللهَ سبحانه وتعالى {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} تذكر نعمة الله عليك ونزِّه الله سبحانه وتعالى عن أي نقص.
- {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ} يتذكَّر نعم الله عليه.

{وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} هذه الآيات هي ختام القصة، ختام يجمع شعث القصة،

ما المطلوب أن تخرج به من القصة؟، ما هي المشاعر التي تخرج بها من القصة؟ يُجْملُها يوسف عليه السلام في ختام القصة.

بإذن الله عزَّ وجلَّ نذكرها مع ختام السورة المرة القادمة بإذن الله تعالى، نُكمل بإذن الله عزَّ وجلَّ ختام السورة ونحاول أن نَذكُر فوائد عامة، الشيخ السعدي في آخر تفسير سورة يوسف جمع أهم الفوائد، فقد كان يفسر كل آية وفي ختام السورة جمع كل الفوائد المذكورة في السورة التي من الممكن أن تعود إليها.

هذا الختام كنتُ خطبتُ خطبةً شرحت فيها هذا الختام، حتى إذا لم يُقَدَّر لنا اللقاء لأي سببٍ تقرأه، أو تسمعه، الخطبة كانت شرحًا من أول هذه الآيات لختام السورة.

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يستعملنا وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

جزاكم الله خيرًا....